مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٧) العدد (٨) ٢٠٢٣
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (٧) No. (٨) 2023

الفعل الإنجازيّ وقوّته الحجاجيّة
قراءة تداوليّة في رواية الدّفلى
لـ "ماري رشّو"

*** أ.د مالك ياسين**

****ملاذ حرفوش**

(تاريخ الإيداع ٩/٢٦ /٢٠٢٣. قُبِل للنشر في ١٢/٣ /٢٠٢٣)

□ ملخّص □

يدرس البحث رواية "الدّفلى" من منظور لسانيّ تداوليّ، فيبحث في مقاصد الكلام ومضمراته الدّلاليّة، وفق نظريّة الأفعال الكلاميّة التي تمثّل ركيزة أساسيّة من ركائز البحث التّداولي، بما تتضمّنه من قوّة إنجازيّة إقناعيّة تدعو إلى القيام بالعمل به أو العدول عنه أو تعديل موقف ما قبولاً أو رفضاً، مستندة في البحث إلى النّظريّة الحجاجيّة، والآليّات الإقناعيّة الكلاميّة في النّصّ الأدبيّ، لما لها من دور في قوة الفعل وتمكين أثره الكلامي عملاً وإنجازاً، وفي هذه الرّواية تثار قضيّة فكريّة ودينيّة محوريّة وإشكاليّة، تتمثّل في الإيمان بالغيبيّات، وما يترتّب عليه من محاور وقضايا وجوديّة، فيعمل البحث على تحليل النّصّ وتأويل الملفوظات النّصّيّة، وتوضيح المعاني الضّمنيّة والمقاصد الكلاميّة وفق أسس النّظريّة التّداوليّة.

الكلمات المفتاحيّة: الأفعال الكلاميّة، التّداوليّة، الحجاج، المقاصد، الرّواية.

*أستاذ. قسم اللّغة العربيّة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة تشرين، اللّاذقيّة، سورية.

**طالبة دكتوراه (الدّراسات اللّغويّة). كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة تشرين، اللّاذقية، سورية.malaz19harfosh86@gmail.com

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٧) العدد (٨) ٢٠٢٣
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (٧) No. (٨) 2023

The Speech Act and its Argumentative Power: A Pragmatic Approach to The *Oleander* by Mary Richo

*** Dr.Malek Yaseen**
**** Malaz Harfosh**

(Received ٢٦/٩ /٢٠٢٣. Accepted ٣/١٢/٢٠٢٣)

□ ABSTRACT□

The research studies the Oleander novel with pragmatics theory, it draws his material of tributaries pragmatics theory, it centers on the speech act theory and the argumentations theory, the speech act is the brunch of pragmatics.

There is a disparity in strength and weakness of speech, the speech depends on many strategies to push the receiver to conformity to the request or to change his mind at least, this kind of conviction back to argumentation power, so we consider the argumentation theory and its rhetorical mechanisms.

We finished the research with a conclusion in which the results of the research were recorded.

Keywords: speech acts, pragmatics, argumentation, novel.

* Professor, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Latakia, Syria.
** P.HD student, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Latakia, Syria. Malaz19harfosh86@gmail.com

المقدّمة:

يدرس البحث رواية "الدّفلى" لماري رشّو دراسة تداوليّة لسانيّة، ويستقي مادّته من روافد التّداوليّة مركّزاً على نظريتي الأفعال الكلاميّة speech acts والحجاجaregumnation بوصفهما نظريّتين متقاربتين ومتكاملتين، فالكلام الذي بُنيت عليه الرّواية وفق سياقات معيّنة يدعو إلى جملة من الأفعال الإنجازيّة التي تتفاوت من حيث قوّتها وضعفها، وتستعين الأفعال الكلاميّة بآليّات إقناعيّة تدفع المتلقّي إلى تعديل موقفه من فكرة أو قضيّة بما يعرضه النّصّ من قضايا.

واشتغلت أبحاث متعدّدة على دراسة الفعل الكلاميّ والنّظريّة التّداوليّة، منها ما جاء في (التّداوليات علم استعمال اللّغة)، والكتاب مجموعة مقالات أُخذت من أطروحات دكتوراه لباحثين عدّة، وهي تنسيق عبد السّلام علوي وتقديمه، من منشورات عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، الطّبعة الثّانية، عام ٢٠١٤، وممّا نُشر أيضاً مجموعة من الأبحاث العلميّة المحكّمة، مثل البحث الموسوم بـ(بين تداوليّة الأفعال الكلاميّة والحجاج مقاربة مفاهيميّة) لـ حمدي منصور، والمنشور في مجلّة حوليّات المخبر، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الأوّل، في "ديسمبر"، عام ٢٠١٣.

أهداف البحث وأهمّيته:

تُجيب الدّراسة عن جملة من الأسئلة التّداوليّة المترتّبة على قراءة الرّواية، لماذا يقال هذا الكلام؟ وما المعاني الضّمنية والمقاصد المرادة منه؟ وما الأفعال الإنجازيّة المتوقّعة من المتلقّي والمترتّبة عليه؟ وما آليّة تقديم هذه الأفعال، وما مدى قوّتها الإنجازيّة الإقناعيّة؟ فالبحث يفترض أنّ النّصّ الرّوائي الّذي يتّسم بالدّيمومة لا يخلو من الهموم الإنسانيّة والمسائل الواقعيّة الحياتيّة اليوميّة التي يودّ تحريض المتلقّي على التّفاعل معها والاندماج فيها أو دحضها وتغييرها، وبناء على ما جاء في الرّواية من مسار تداوليّ اختيرت هذه النّظريّة لتكون الأساس التّطبيقيّ التّحليلي للعمل.

منهج البحث:

المنهج المتّبع في الدّراسة هو المنهج الوصفيّ القائم على تحديد زمانيّ ومكانيّ، يرتبط برواية سوريّة حديثة، طُبعت عام ٢٠٠٢، تناولت الرواية قصة معاصرة مستقاة من الواقع المعيش في سورية، معتمدة في البحث على أدوات المنهج الوصفيّ، من رصد المادّة العلميّة وجمعها، وتصنيف البنية النّصّيّة وتحليلها وتأويلها، وصولاً إلى هدف البحث ونتائجه الوصفيّة والعلميّة والموضوعيّة.

المناقشة والتّحليل:

عُنيت النّظريّة التّداوليّة* –بروافدها المتمثّلة في نظريّة الأفعال الكلاميّة والنّظريّة الحجاجيّة ونظريّة المحادثة– بالكلام المنطوق وبالحوارات، ودرست اللّغة المنطوقة قيد الاستعمال وفي سياقها الكلاميّ، ومن ثمّ توسّعت مسارات الدّرس التّداوليّ لتشمل الخطابات المتنوّعة والنّصوص الأدبيّة، أمّا الرّواية قيد البحث فهي عمل

* تهتمّ التّداوليّة "بالعلاقات القائمة بين الأدلة ومستعمليها واستعمالها وآثارها، من حيث معناها الضّيق، تطلق التّداوليّة إذن على التّخصص أو التّخصصات الّتي تعنى بالمكوّن التّداوليّ... نقصد بذلك المكوّن الذي يعالج وصف معنى الملفوظات في سياقها". مانغونو، دومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب،١٠١.

نصّيّ يزخر بالحوارات بين طرفين أو بالمونولوج المرتبط بالشّخصيّة الرّئيسة فيها، وتحفل الحوارات بمضمرات كلاميّة وبمقاصد تستحقّ البحث، وتطالعنا في رواية "الدّفلى" قضيّة إشكاليّة قليلة التّداول في النّصوص الأدبيّة، أفردت لها الكاتبة رواية خاصّة تعالج فيها مسألة الإيمان في الغيبيات وتأثيرها في الإنسان، ويجد البحث أنّ هناك جوانب تستحقّ البحث والتّقصّي.

متن الرّواية*:

تناجي الأمّ الخيّاطة نفسها في حوارها المونولوجيّ، متحدّثة عمّا آل إليه حالها وحال ابنتها الّتي لم تسعد في زواجها المبكّر: "**منذ تمرّدها الأوّل ومجيئها للسّكن معي وأنا أبحث عن خطّة تعيد التّوازن الحقيقي إلى حياتها[...] هاجمتني أفكار لها علاقة بالجهل، أو أنا أعتبرها كذلك، ففي قناعاتي أنّها لا تمتّ إلى الحضارة، بل لها علاقة بالخرافة، لها علاقة بالتّخلّف. أو ليس من يؤمن بالعرافة والغيبيّات جاهلاً؟**"[1]، يدلّ السّياق اللّغويّ على وقوع المشكلات العائليّة الّتي تركت أثراً سلبيّاً في الأمّ المهتمّة بحياة ابنتها واستقرارها، إنّ الاستفهام الإنكاريّ المذكور (أو ليس...) يخرج إلى معنى التّهكم والسّخرية، فتبعث التّهكّميّات الموجّهة تجاه الخرافة النّفور لدى المتلقّي، أو الشّكّ وزعزعة القاعدة الشّعبيّة الّتي ترجّح هذه التّوجّهات وتدعمها، إنّ ربط الغيبيّات بالجهل جاء بوصفه فعلاً كلاميّاً في إطار الحكميّات، ويدلّ السّياق مجدّداً على أنّ الأفكار المنسوبة إلى الجهل لا ترتبط بعمل سويّ يعيد توازن العلاقة بين الزّوجين، بل تقوم على سلوكيّات إنجازيّة تتعلّق بالغيبيّات المنسوبة إلى العرافة والسّحر، غير أنّها تتذكّر في معرض هذا الكلام حواراً دار بينها وبين صديقها القديم "تميم"، وهو يلعب دور الرّجل المهتمّ بالغيبيات والمعنيّ بالماورائيّات:

- **"هل تؤمن بوجودهم؟**
- **طبعاً أؤمن. الأساطير اعترفت بهم، والأديان اعترفت. هم كائنات روحانيّة أو مخلوقات ناريّة، فإبليس تارة من الجنّ وتارة من الملائكة [...]**
- **اصمت يا تميم.**
- **ولماذا أصمت؟ اقرئي الجاحظ والثّعالبي، اقرئي ابن الأثير والأصفهاني، والنّويري"**[2].

يعدّ الحوار التّفاعليّ قاعدة لاتّجاهين فكريّين مختلفين في بعض التّوجّهات والقناعات، الأوّل يميل إلى الشّك والثّاني إلى اليقين، يقود ذلك الاختلاف إلى تفاعل الحوار، فيعتمد الطّرف المؤمن بوجود الجنّ على مسلّمات يبني عليها قضيّته، فيضع مقدّمات متسلسلة سلّميّاً في عمليّة استدلاليّة حجاجيّة، تدعم كلّ حجّة فيها سابقتها، فالمقدمات المذكورة (الأساطير والأديان التّوحيديّة وكتب التّراث) تفضي إلى نتيجة مفادها (رسوخ مدوّنات أهل النّقل والمسلمّات المسبقة)، فيدعم القضيّة تاريخيّاً بوجود قصص أسطوريّة، ومرجعيّات دينيّة إبراهيميّة

*تناولت الرّواية قصّة امرأة أرملة خيّاطة في عقدها الرّابع، وفق إطار زمانيّ معاصر ومكانيّ مرتبط بالسّاحل السّوريّ، تعيش في منزلها مع ابنتها وزوج ابنتها ظافر مع حفيدين صغيرين، تكابد جاهدة لتعيل نفسها، يؤرّقها عدم وفاء صهرها لزوجته وخيانته لها، فتسعى الأمّ إلى ضبط سلوك الصّهر، مستعينة بوصفة سحريّة من أحد الكتب، تبدأ الهواجس بمطاردتها عقب هذا العمل، يدعم هواجسها صديقها القديم "تميم" الذي يبدو مهتمّاً بالغيبيات، تُدعى للمشاركة في مهرجان للخياطة والتصميم خارج البلد، فتلبي الدعوة، تعود محمّلة بغبطة الثّناء على المشاركة، فرحة بالمحاولة وبالتّجربة الجديدة، يعود الوفاق بين الزّوجين، وينشغل الصّهر بمتابعة دراسته، تنتهي الرّواية نهاية سعيدة تجتمع فيها العائلة على المحبّة والسّلام بعيداً عن الهواجس والمخاوف.

[1] رشو، ماري، الدّفلى، ١٦.

[2] رشو، ماري، الدّفلى، ١٧.

وإسلاميّة، إضافة إلى وجود شذرات أدبيّة حول الموضوع في كتب الأصول المعتمدة فكريّاً وأدبيّاً لدى المتعلّمين والمثقّفين، ويميل إلى الحجاج بالتّجهيل* عندما يشكّك في معرفة الطّرف الآخر واطّلاعه على ما ورد تاريخيّاً ودينيّاً وأدبيّاً، فيبدو الحجاج قاعدة تُلزم المتلقّي بفعل كلامي نصحيّ يحفّزه على الاطلاع على تفاصيل الموضوع في التّراث، وإذا عددنا "التّقنيات الحجاجيّة كيانات مجرّدة يشغلها المحاجّ بجملة من القيم والحقائق حتّى تصبح فاعلة في الخطاب موجّهة حركته، فإنّ المقصد منها، الأفعال الحجاجيّة الّتي ينجرّ عنها تبديل عقائد الجمهور وتوجيه تصوّراته العقديّة والرّمزيّة والأنطولوجيّة"( )، وفي هذا المتن تظهر أفعال[١] على سبيل الأمريّات*، وتعدّ عملاً كلاميّاً يحمل قوّة إنجازيّة مستمدّة من الاستراتيجيّة المتّبعة في سياق الكلام (اقرئي)؛ فيعمل الكلام على إقناع الخصم (الطّرف الثّاني) وإفحامه، ويعزّز التّعريف الحجاجيّ (هم كائنات روحانيّة...) حجّته، معتمداً مجدّداً على النّقل والثّوابت الدّينيّة، مؤكّداً وجودهم.

وفي هذا السّياق الإقناعيّ هناك ما يتعارف عليه بالمبدأ الحجاجيّ؛ إذ "يُومئ المبدأ الحجاجيّ إلى الأفكار والآراء السّائدة اجتماعيّاً، وهي التي تضمن اتّساق الحجج والنّتائج في الخطاب مع التّصديق بصحّتها واقعيّاً، فالجميع يجزمون بأنّ العمل يؤدّي إلى النّجاح. وبالجملة ... المبادئ الحجاجيّة في الأصل تعبّر عن الضّمير الجمعي في رؤية الأشياء"( )، وبناء على هذا المبدأ تُبنى[٢] الحجج وتتصاعد فعاليّتها، فممّا لا شكّ فيه أنّ القاعدة الشّعبيّة ركيزة مؤثّرة في مسار القناعات والأفكار الإنسانيّة؛ لذا تتولّد لدى الخياطة رغبة في مساعدة ابنتها الّتي يخونها زوجها، فتلجأ إلى وصفة استقت تفاصيلها من أحد كتب التّراث، وهي مدرجة تحت عنوان عقد زنى الرّجل، فتبدأ بملاحظة نتائج إيجابيّة لدى أسرة ابنتها، ولكن تعيش الأسرة لاحقاً جملة من التّهيّؤات والخيالات، فيدور عقب ذلك حوار بين الأمّ وابنتها: "**ما الّذي يحدث؟ تكلّمي! فتكلّمت، فهي خلال اللّيل كانت تشعر وكأنّ أحداً ما يتحرّك في الغرفة، وحين يجلس يكون ذلك للقراءة، كانت تستمع إلى صوت تقليب الصّفحات[...] لماذا أصمت ولا أبحث في الأسباب؟ لماذا لا ينتابني الخوف؟ هل لأنّ لا علاج لهذه الظّواهر إن وُجدت حقيقة؟**"( )[٣].

خروج الاستفهام على معناه يفيد معاني متعدّدة، التّقرير والإنكار والنّفي، وإنّما الغرض إثارة الذّهن وتحريضه، لإحداث قناعة جديدة عن هذه الحوادث الغامضة الّتي باتت تتشاركها شخصيّتان على الأقل، فيترك هذا أثراً كلامياً يُصطلح عليه بأثر القول، ويُعرف أثر القول بأنّه "الفعل المتسبّب في نشوء آثار المشاعر والفكر"( )، وهو النتيجة المترتّبة على فعل الكلام والغرض الذي يسعى إليه المتكلّم من الفعل القوليّ واللاقوليّ، ويبدو أنّ السّياق المقاميّ والمرجعيّات الثّقافيّة يشيان بواحد من أمرين: عدوى المشاعر والأفكار المنتقلة من الأمّ إلى ابنتها، أو حقيقة المشاهدات الحاضرة في منزل الأمّ، فتتساءل مجدّداً: "**أليس من حقّي أيضاً التّفكير بزمن سبق تلك الفترة؟ وهل كانت تحدث أمور شبيهة في ذلك الزّمن السّابق؟ لا أذكر شيئاً من هذا. وأعتقد أنّها**

---

* من أنواع الحجاج: الحجاج بالتجهيل. ينظر: عشير، عبد السلام. عندما نتواصل نغيّر مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ١٦٤ وما بعد.

[١] الشبعان، علي. *الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات في نماذج ممثلة من تفسير سورة البقرة*، ٢٦٣.

* يَعدّ الباحثُ (الأمر والنّصح والطّلب) من الأساليب المستعملة في الحجاج. ينظر: جودي، حمدي منصور. بين تداولية الأفعال الكلامية والحجاج مقاربة مفاهيمية، حوليات المخبر، ١٠٨.

[٢] بلقاسم، دفة، *استراتيجية الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية العربية*، مجلة المخبر،٥٠١.

[٣] رشو، ماري، الدّفلى، ٤٣.

[٤] بلخير، ذيب. *تجليات الفعل الكلامي عند جلال الدين القزويني*، مجلة مقاليد، ص٥٤.

تحدث لأوّل مرّة. أم أنّ أموراً أخرى كانت تشغلني آنذاك؟ أو ما الّذي كان يبعدني عن التّفكير بظواهر تحيط بي؟"[1]، يثير الاستفهام الإنكاريّ الشّكوك الّتي صارت فعلاً كلاميّاً منجزاً، يدلّ على تأرجح الشّخص وعدم قدرته على اتّخاذ موقف واضح، ويوحي الكلام بوجود اللّامألوف في كلّ زمان ومكان، فالمرأة تبحث في الذّاكرة عن كلّ ما هو غريب كانت قد تجاهلته في ماضيها لانشغالها وعدم اكتراثها بهذه الحوادث، أمّا يقظة الذّهن بطريقة مفاجئة ومن ثمّ التّركيز على الحوادث الغريبة فهو أمر يدعو إلى التّساؤل والرّيبة، يردّد كولن ولسن مؤكّداً ما يمرّ به الإنسان في هذه المواقف، "نحن ميّالون إلى الرّكون إلى هذه الاستجابة متى ما واجهنا "الغريب الشّاذ" بأن ندفعه إلى قسم مستقلّ ومغلق من العقل، يحمل لافتة تقول: "الاستثناءات، ثمّ نتركه للنّسيان"[2]، فالشّعور بأمر غريب وغير منطقيّ وارد لدى أيّ شخص، لكنّ ردّات فعل الإنسان متفاوته تجاهه، فيتمّ قبوله على أنّه غيبيّ، أو رفضه بوصفه أمراً خارقاً أو مصادفة طارئة لها تفسير منطقيّ، وقد يُنسى مدّة زمنيّة أو يدوم في الذّاكرة، وذلك بحسب مرجعيّات الإنسان وهواجسه. ٢

يبدأ نبش الذّاكرة بحثاً عن أشباه تلك الحوادث ممّا مضى عليه الزّمن، فتسترجع الأمّ ذكرياتها في القرية قائلة: **"من الذي يباشر بأحاديث الجنّ والعفاريت؟ أم أنّ الجميع كانوا يساهمون بذلك[...] وأعتقد الآن أنّني كنت أحملها معي إلى ما قبل النوم، لأصوغ منها عشرات القصص، وأعتقد أيضاً بأنّها لم تحمل الخوف إليّ بقدر ما حملتني إلى عالم عجائبيّ غريب** "[3]، نلمح أثر التّراكمات الثّقافيّة والشّعبيّة التي تمثّل توجّهاً أيديولوجيّاً خاصّاً بشريحة كبيرة من النّاس، إنّ تعزيز الأحاديث المرتبطة بالغيبيّات والخوارق واللّامألوف يعدّ جزءاً من العقليّة الإنسانيّة والبنيّة الفكريّة والإرث التّاريخيّ، ويبدو أنّ "ما يسمّى بالقوى السّحريّة، إنّما هو جزء من هذا العالم الكامن الخفيّ، قدرات الحاسّة السّادسة أو البصيرة الثّانية، والرّؤية المسبقة، والتّواصل عن بعد والتّنبّؤ، وليست هذه القدرات مهمّة بالضّرورة لتطوّرنا"[4]، إنّ محاولة الإنسان إثبات القوى الخفيّة محاولة لم تيئس بعد، مقوّماتها جملة من الأحاسيس والتّنبّؤات، وكلّ ما توارثه النّاس من قصص المعجزات والكرامات والخوارق، ومن يؤمن لم يقدّم حجّته المادّيّة كحقيقة مطلقة لا تدعو إلى الشّكّ، ومن ينكر يفتقر إلى إثبات مسوغات إنكاره أو إقناع الطّرف الآخر بها إن وُجدت.

تقول المرأة متذمّرة: **"لا أدري لماذا باغتني شعور الكراهية لكلّ عمل، وليس للخياطة بالذّات[...] هذه مهنة تجرّ الويل على أصحابها، فما من امرأة تمتهنها إلّا وتعرّضت لما ينغّص حياتها[...] كما يفعل الاسم أحياناً، فيصيب حامليه بعوامل مشتركة، كالفقر واليتم وضيق الحال"**[5]، في هذا المتن تعتمد اللّغةُ المنطقَ الحجاجيّ، وفق آليّة تركيبيّة تتمثّل في أسلوب الحصر، وهو أسلوب ذو بعد إقناعيّ، والعامل الحجاجيّ هذا "لا يضيّق من احتمالات المحاجّة المسجّلة في جملة من الجمل، ولكنّه يقيّدها بمسارات تربط بين الحجّة والنتيجة"[6]، فتحصر اللّغة كلّ النّساء اللّواتي امتهنّ الخياطة في دائرة الشّقاء، ويُدرج السّياق اللّغوي مثالب المهنة، ليدعم الحجاج القضيّة، عند وضعه أحد جوانب التّفكير الشّعبيّ المرتبط بالاسم وخلفيّاته الثّقافيّة، فهناك ثقافة شعبيّة لها

---

[1] رشو، ماري، الدّفلى، ٤٣.

[2] ولسن، كولن، الإنسان وقواه الخفيّة، ٩.

[3] رشو، ماري، الدّفلى، ٤٧.

[4] ولسن، كولن، الإنسان وقواه الخفية، ٧.

[5] رسو، ماري، الدّفلى، ٥٦.

[6] فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ٣٨٣.

جمهور عريض يربط تطوّر حياة الفرد أو تدهورها بقضايا غير مدروسة، مثل العمل أو الاسم أو... ولهذه الأفكار صدى لدى جمهور معيّن تستهويه الخوارق واللّامألوفات، ممّا يدفعهم إلى التّغيير تجاوزاً للصّعاب، وبحثاً عن النّجاح.

يسألها صديقها "تميم" فيما إذا تعرّضت لوعكة صحيّة، فتجيبه بالإيجاب مستغربة من معرفته بما حدث، مستنكرة ما يحصل معها ممّا لم تعهده أو تألفه:

"**كان ذلك بسبب اصطدامي بأحد أبناء الجنّ، هذا مضحك حقّاً. ثمّ ماذا يا تميم؟ لقد تألّم الطّفل، وعليك بالمقابل أن تتحمّلي الألم. ضحكت أكثر. قلت:**

– لماذا لم يبعد هذا الجنيّ عن طريقي؟ أليس هذا أفضل له ولي؟!

–لا تمزحي!.. إنّي أقول الحقيقة. هم يروننا ونحن لا نراهم[...]

–إذن هم في كلّ مكان؟ [...] كيف توصّل تميم إلى تلك المعرفة؟ وهل حقّاً يعرف الخفايا؟ وتوصّلت إلى أنّه استطاع معرفة حالة التّسمّم الّتي وقعتُ بها [...] واستطعت تذكّر بعض ما كان يُروى أمامي، حين أكلَت (الأرضة) عصا سليمان التي كان يتّكئ عليها"[١].

الحوار التّداوليّ قائم بين طرفين متناقضي التّوجه، فتعكس هذه المحادثة وجهة نظري فئتين اجتماعيّتين، الأولى تشكّك وتتهكّم، والثّانية تؤكّد وتثبت، ويدعم الحجاجُ الدّينيّ القصصيّ المتنَ، عندما يستمدّ من الكتب السّماويّة قصّة النبيّ سليمان ويوظّفها خدمة للغرض، فترى الطّرف الثّاني– الّذي يمثّل أهل النّقل والمسلّمات الدّينيّة المسبقة– يُصدر حكميّات كلاميّة (هم يروننا)، مستنداً إلى المعتقد الدّينيّ الّذي يتحدّث عن رؤية الجنّ للإنسان، وعن عدم إمكانيّة رؤية الإنسان له.

يمثّل الاحتكام إلى المنظور الدّينيّ دعماً للحجّة وتقويّة للجانب الإقناعيّ، فيغدو الحجاج عاطفيّاً دينيّاً في الوقت نفسه، ويستميل الطّرف الأوّل من خلاله الطّرف الثّاني بوصفه يدين بمعتقد غير قابل للطّعن، و"وراء كل عاطفة أحكام ومعتقدات عليها ينصب الفعل الحجاجيّ، وعنها يدافع المتكلّم.. وإليها يصوّب نقده حين يروم تقويض عواطف غيره. فالعواطف من المسائل التي ينشب بين المتكلّمين خلاف في شأنها"[٢]، وفي هذا المتن يدافع الطّرف الأوّل الذي يمثّله "تميم" عن معتقداته المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعواطفه وتوجّهاته، ويلقي بها معزّزة حجاجيّاً أمام الطّرف الثّاني الذي تمثّله "المرأة الخيّاطة"، ليأتي دور الفعل الكلاميّ التّنبيهيّ (فندموا كثيراً) مشيراً إلى المستقبل، في محاولة للتّأثير في ذهن المتلقّي، والإشارة إلى مثالب إعراضه وعدم تقبّل رؤية هذه الكائنات أو الإحساس بها.

تراودها أفكار تعبّر عنها في قولها: "**أقارن نفسي مع نساء مررن بظروف مشابهة، أراهن في أحسن حال، أكثرهن لم يعشن العزلة. أكثرهن تحرّرن. وانطلقن. لست أدري كيف؟ وما مقوّماتهنّ؟ هل هو تخطيط؟ هل هي حنكة؟ أم ضرورة أم حقّ؟ لمَ لا يكون حقّاً أن تتابع الحياة بما ترغب وتهوى وتحبّ؟ أين تكمن قناعاتي ورغباتي؟**"[٣]، في هذه الأسئلة المونولوجيّة التي تمثّل فعلاً كلاميّاً على صعيد البوحيّات والاعترافات تكشف الشّخصيّة حقيقة التّناقض والحيرة اللتين تصيبان الإنسان في بعض المواقف، ويستدرج سياق الكلام الإشارة إلى

---

[١] رشو، ماري، الدّفلى، ٥٩.

[٢] عبيد، حاتم. *منزلة العواطف في نظرية الحجاج*، عالم الفكر، ٢٤٤.

[٣] رشو، ماري، الدّفلى، ٦٨.

العزلة ومنعكساتها السّلبيّة على التّفكير وتهويل المشاعر، فتمثّل البوحيّات فعلاً إنجازيّاً يحدّ في طبيعته التي يغلب عليها الشّكّ من القدرة على إنجاز عمل واضح، فالشّكّ لا يعطي ثقة اليقين، وعدم الثّقة بالذّات يؤدّي إلى الفشل.

تقول عقب سماعها صوت لعبة وقعت أرضاً: **"نحن الذين نصنع الأحداث، وكلّ شيء ممكن في هذا العالم الفسيح، وأنا التي تؤمن بالفلك، وبتلازم المصير الذي ندعوه بالوقوع[...] لماذا أخاف إذن؟ ونحن لم نسمع عن حادثة كان الأذى فيها مجهول المصدر؟ هل لأنّني أتلمّس حدوثها الفعليّ لأوّل مرّة؟ هل لأنّ الإيمان بها كان نظريّاً و ومجرّد تكهّنات؟"**( )، تمنح الحكميّاتُ الكلاميّة اليقينيّة (نحن الذين نصنع الأحداث) الفعلَ الكلاميّ قوّة إنجازيّة، وقد يكون للأفعال الكلامية "دور حجاجي وقد لا يكون لها ذلك الدور، وذلك متوقف على غرض الخطاب والاستراتيجية التخاطبية التي يتوخاها المرسل في خطابه"( )، وفي الشّاهد الرّوائي حكم كلاميّ يقينيّ يحمل أثراً قولياً، كما يتضمّن معاني ضمنيّة تعبّر عن التّردد والحيرة ومن ثمّ الرّفض، في محاولة لإثبات دور العلم والعقل، فليس هناك من معطى يدلّ على واقعيّة وجود مخلوقات غيبيّة تُرى عياناً لدى الإنسان، رغم وجود محاولات لإثبات وجودها، إنّ الإيمان بها شيء وادّعاء رؤيتها شيء آخر وفي هذا المتن دعوة كلاميّة إلى التّعمّق في التّفكير الغيبيّ وفي اللّامألوف، قبل الانجراف في التّهيّؤات والإفراط فيها والمغالاة في الخوف منها، يأخذ الفعل الكلاميّ شكلاً إيحائيّاً، ويعتمد فهمه على النّظر في القرائن السّياقيّة الدّالة، إنّ الجمل الخبريّة تصدر حكميّات كلاميّة بفكرة الحدوث والمادّيّات والقدر.

إنّ سلسلة الأحداث اللّامنطقيّة التي مرّت بها جعلتها تتوصّل إلى القرار الآتي: **"الاستسلام لما يحدث، قد يستمرّ ذلك وقد يتوقّف، فليحدث ما يحدث[...] ما دمت أنام وأستيقظ وأتحرّك وأمارس عملي، كأنّ شيئاً لم يكن"**( )، الاستدلال الكلاميّ يربط أمرين[3] ببعضهما، ويمنحهما قوّة كلاميّة إنجازيّة على صعيد القرارات، فعدم وجود أدلّة مادّيّة ملموسة تجاه ما يواجه المرء من غيبيّات يستلزم عدم المغالاة فيها وتهويل الأمور، وبالتّالي التعايش معها، والخضوع لها إن صعبت مواجهتها، غير أنّ المفارقة مجدّداً تكمن في قولها:

"– انصحني يا تميم. ليس لي أحد ألجأ إليه. كيف سأبعد ذلك الرّجل؟

– ولماذا تبعدينه؟ هو لا يريد ذلك. يريد التّعايش بسلام.

– لا أريده يا تميم. إنّه متطفّل ومؤذ"( )، يجمع سياق مقاميّ واحد طرفيْ الحوار، ويعدّ السياق المقامي "جزءاً من البواعث الاجتماعيّة الفاعلة في الخطاب الحواري، وهي بواعث تؤطّر الحوار ليسير وفق حدود واضحة"( )، فيعزّز الحوار الأفكار الشّعبيّة[4] السّائدة حول قضيّة ما، ويمثّل رفض التّعايش معه فعلاً كلاميّاً يناقض ما سبقه من كلام، ويحمل قوّة إنجازيّة أكبر، فهو يضمر حالة شعوريّة تشي بالخوف مجدّداً غير أنّها تدأب على المواجهة وعدم الاستسلام، إنّ لهذا الحوار طابعاً جدليّاً حجاجيّاً، والحجاج الجدليّ "يحتكم إلى العقل، ويحدّ من سلطة العواطف والأهواء ويكبح جماح الغضب والانفعال، ويدعو إلى الإقناع بالحجّة مستمدّة قوّتها من ذاتها"( )، وفي الحوار يظهر جدلاً أنّ مقدرة الإنسان على التّعايش مع اللّامألوف ممّا رسخ في الذّهن عن الجنّ أمر غير

---

[1] رشو، ماري، الدّفلى، ٨٠.

[2] علوي، عبد السلام إسماعيل. التداوليات علم استعمال اللغة، ٦١.

[3] رشو، ماري، الدّفلى، ٨٨.

[4] رشو، ماري، الدّفلى، ١٠٤.

[5] نظيف، محمد. الحوار وخصائص التفاعل التواصلي دراسة تطبيقية في اللسانيات التواصلية، ٨.

[6] البهلول، عبد الله. الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكّلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، ٢٩٧.

مقبول، حوار الشّخصيّتين يضمر تأرجح الطّرف الّذي تمثّله المرأة بين القبول والرّفض، الثّقة والخوف، الإيمان والشّكّ، قبول آراء أهل النّقل وأفكارهم المسبقة، والميل إلى توجّهات أهل العقل وحجاجهم العقليّ، فيمثّل كلّ من القبول والرّفض حجاجاً بالمفارقة، فإذا كانت القاعدة تقضي بوجودهم، فإنّ العقل ينكر ما لا تدركه الحواس، وصلب المشكلة يكمن في التّأثر بهم سلباً والخوف منهم، وليست في الإيمان بوجودهم أو عدمه.

وما تلبث المرأة الخيّاطة أن تسمع خبراً جديداً عن الدّفلى يزوّدها به صهرها: "**لم يثبت عبر تاريخ المنطقة ما يسيء إلى هذه الشّجرة الطّيبة، فهي نبتة متواضعة ودائمة الخضرة، ولم تكن في يوم عدوانيّة أو شيطانيّة[...] (زيوان البلد ولا حنطة جلب)[...] فالدّفلى تطرد النّحل والحشرات لمذاقها المرّ[...] ثمّ أليس للسّموم من فائدة؟ ألا يُستعمل قليله في تركيب بعض الأدوية؟ وفي العلاجات الطّبّيّة؟**"[1]، المثل الشّعبيّ الذي يعكس تصوّرات فئة كبيرة يدعم نبتة الدّفلى، ويعزّز مكانتها في السّياق بعد كلّ الاتّهامات المنسوبة إليها شعبيّاً، فيعالج وجودها من منظور عقليّ علميّ، معتمداً استراتيجيّتين إقناعيّتين؛ الأولى: **تأثيريّة بلاغيّة**، تشخّص النّبتة بهيئة إنسان، وتشبّه الدّفلى بإنسان متواضع بعيد عن الشّرور والمكائد، على سبيل الصّورة المجازيّة، والمجاز دليل الحجاج، ولا حجاج بغير مجاز[2]، فتؤثّر هذه البلاغة في المتلقّي الّذي يتهيّأ نفسيّاً لتقبّل الوصف، كونه يتعامل مع نبتة لا حول لها ولا قوّة، والثّانية: **إفحاميّة استدلاليّة**، تعتمد المنهج العلميّ الطّبّيّ، فتنعكس وفق الهيكليّة الحجاجيّة فكرةٌ مدعاةٌ للتّأويلات، يساعد السّياق اللّغويّ على كشفها، فإذا فرضنا أنّ للنّباتات فوائد ومضارَّ، وأنّ البحث الطّبّيّ يكشف الجانبين، فالمشكلة تقوم في عقليّة المستفيد من النّبات أو في الوصفات السّحريّة المبنيّة على خلطات نباتيّة متنوّعة، فضعف الإنسان ويأسه من تحقيق غاياته يدفع به إلى البحث عن قوّة ما تعينه، قوّة غيبيّة لا تتداخل مع الآخرين، وما اختيار النّبات إلا بوصفه جزءاً من الطّبيعة التي يُعزى إليها القوّة والصّلابة، فلِقوى الطّبيعة ماض غابر راسخ في تاريخ تطوّر الإنسان.

يبعث التّقرير الصّادر عن هيئة الزّراعة الطّمأنينة في نفس المرأة، تقول: "**أتساءل بطريقة لا تخلو من الاستغراب المشوب بالحذر عن أولئك الدّخلاء الذين شاركوني الحياة وقضّوا مضجعي. كيف جاؤوا؟ وأفكّر كيف رحلوا؟ وقد أجيب بأنّني أدري، أو أنّني لا أدري. أمّا ما أنا موقنة منه، فهو آخر الكلمات التي استمعت إليها، واستوطنت في نفسي وذاكرتي. كانت "ضرورة التّمسّك بالأرض**"[3]، يمثّل المحسّن البديعيّ "الطّباق" في المونولوج السّابق حجّة بلاغيّة تأثيريّة، تبيّن حقيقة التّناقض القائم لدى المرأة الخيّاطة، بين الإيمان في الغيب والشّكّ به، (جاؤوا- رحلوا) و(أدري- لا أدري)، والمقارنة أسلوب حجاجي تنشأ من مقولتين، وقد جاءت المقارنة مقارنةَ اختلاف[4]، هذه المقارنة تخلق اختلافاً وتناقضاً ما، هذا التّناقض الذي يساور المرء غالباً فيما إذا عاش ظروفاً مشابهة ومواقف مماثلة، وهو انعكاس لمرجعيّات وأفكار مسبقة مستقاة من المحيط، إنّ اكتشاف حقيقة علميّة قلبت موازين النّظرة إلى المحيط، فتلك المرأة عاشت صراعاً داخليّاً انقضت آثاره بطريقة مباغتة، فكشفُ الحقائق تزامن مع زوال الهواجس، ومع موت تميم، ومع استقرار ابنتها وسعادتها، وما جاء في قولها: (ضرورة التّمسّك بالأرض) فيه من القوّة الكلاميّة الإنجازيّة ما هو على سبيل الإلزاميّات، رغم أنّ السّياقات اللّغويّة والمرجعيّة وغيرها لم تُشر

---

[1] رشو، ماري، الدّفلى، ١١٤.

[2] ينظر: عبد الرحمن، طه. *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي*، ٢٣٢.

[3] رشو، ماري، الدّفلى، ١١٧.

[4] يُنظر: شارودو، باتريك. الحجاج بين النظرية والأسلوب، ٨٨-٨٩.

إلى قضيّة الأرض أو إلى المكان بوضوح، لكنّ إقحام الأرض في هذا السّياق يعود إلى تعزيز الثّقة لدى المرأة تجاه عالمها ومحيطها، فقد انعكست عوالم خفيّة ومخيفة هدّدت أمنها ومنزلها وعائلتها، غير أنّ الشّاهد الإذاعيّ وُظّف سياقيّاً بوصفه حجاجاً لغويّاً يمكّن المرأة، ويعزّز موقفها في منزلها الذي يمثّل حياتها المستقلة والمتوازنة.

الخاتمة:

يخلص البحث إلى جملة من النّتائج الآتية:

١. عمل الحجاج بآليّاته المتنوّعة على دعم قضيّة مفادها، عدم قدرة المرء على نكران الغيبيّات التي رسّختها الأديان لدى البشر، أو إثبات عدم وجودها، فضلاً على حدوث مصادفات لا مألوفة ترتبط بأسباب غير معروفة المصدر، ومنه سعي الإنسان الدّائم إلى فهم الأسباب وتفسيرها تفسيراً عقليّاً منطقيّاً، وتمثّلت الآليّات الحجاجيّة في أشكال ساهم كلّ منها في توضيح قضيّة ما، وجاءت على النحو الآتي:

- الحجاج الدّينيّ، وما تداوله أهل النّقل في الأديان من إقرار بالغيبيّات، والحجاج الاستدلاليّ الّذي دعم القيام بتجارب إنسانيّة ومهنيّة تدعم الإنسان عامّة والمرأة خاصّة، في تشجيع على خوض التّجارب وكسر المألوف وتجاوز العقبات الاجتماعيّة والنّفسيّة؛ بغية تعميق الوعي الإنسانيّ وتعزيز الثّقة في النّفس، وكشفت المضمرات التّداوليّة أنّ الطّرف الثّاني الذي يمثّله "تميم" خبير العرافة والبحث في الغيب، إضافة إلى كتب التّراث الّتي كتبها المؤلّفون الرّجال، فضلاً على الإرث الدّينيّ المغرق، يمثّلون مجتمعين اتّجاهاً ذكوريّاً، كان له انعكاسات سلبيّة على المرأة البسيطة التي اعتادت الامتثال والخضوع أكثر من المواجهة.
- الحجاج بالمفارقة الكلامية أكّد ضرورة التمسك بالمكان بوصفه فضاء رمزيّاً يتضمّن الأرض والوطن والانتماء إلى المحيط، فضلاً عمّا يجلبه من استقرار واستقلال، واستبدال تخليص المحيط من العوائق بالهروب منه تحت حجة مشاركة الآخر لنا في حياتنا وأرضنا.
- الحجاج بالمثل يتساوق مع السّياقات المقاميّة المتعلّقة بالتّفكير الشّعبيّ السّائد، فعزّز الثّقة بالبيئة الجغرافيّة والطّبيعيّة.

٢. سعى الحوار إلى عرض أيديولوجيا معيّنة ترتبط بالتّفكير الشّعبيّ تجاه الغيبيّات واللامألوف، وراعى السّياق المقاميّ أطراف العمليّة التّواصليّة، فعزّز بعض القناعات الرّاسخة والمسلّمات المسبقة، ومن ثمّ أثار في ذهن المتلقّي مشاعر متناقضة تتراوح بين الشّكّ واليقين، مركّزاً في بناء هذه التّناقضات على حياة امرأة شبه وحيدة، تعاني من بعض مشاقّ الحياة التي انعكست في سلوكيّاتها على هيئة أوهام وضعف في الثقة، ولّدتها هواجس غيبيّة، ورجال ضاعفوا مخاوفها، ولّد الأمر حوارات داخليّة أسفرت في النّهاية عن توازن داخليّ واطمئنان نفسيّ ناتج من اكتشاف حقائق عقليّة ومنطقيّة، أجابت عن بعض التّساؤلات.

٣. اختلفت درجة قوّة الأفعال الإنجازيّة، وعبّرت عن الشّكّ والحيرة اللذين يسيطران على سلوك بعض النّاس حول المجهول، والرّغبة في المعرفة وفحص الأسباب، فبرزت قوّتها في النّهكميّات التي طعنت في الإيمان الأعمى وتغييب العقل، وفي التّحريضيّات على ما يُقرّه العلم والعقل والمنطق في إثبات فوائد الموجودات المحيطة بنا ومضّارها.

المصادر والمراجع:

١. البهلول، عبد الله: *الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي*، دار نهي، صفاقس تونس، ط١، ٢٠١٣، ٣٢٤ صفحة.

٢. رشو، ماري: *الذّلى*، اتّحاد الكتاب العرب، د.ط، ٢٠٠٢، ١١٩ صفحة.

٣. شارودو، باتريك: *الحجاج بين النظرية والأسلوب، الحجاج بين النظرية والأسلوب عن كتاب نحو المعنى والمبنى*، ترجمة: د. أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٩.

٤. الشبعان، علي: *الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات في نماذج ممثلة من تفسير سورة البقرة*، دار الكتاب الجديد المتحدة– بيروت، تقديم: حمادي صمود، *ط١*، ٢٠١٠، ٥٦٠ صفحة.

٥. عبد الرحمن، طه: *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٨، ٤٣٨ صفحة.

٦. عشير، عبد السلام: *عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦، ٢٤٩ صفحة.*

٧. علوي، عبد السلام إسماعيل: *التداوليات علم استعمال اللغة*، مجموعة مقالات تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط٢، ٢٠١٤، ٦١٧ صفحة.

٨. فريق البحث في البلاغة والحجاج، *أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم*، أبحاث معدة في وزارة التعليم العالي، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، سلسلة آداب، مجلد XXXIX، ٤٤٧ صفحة.

٩. مانغونو، دومينيك: *المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب*، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨، ١٥١ صفحة.

١٠. نظيف، محمد: *الحوار وخصائص التفاعل التواصلي دراسة تطبيقية في اللسانيات التواصلية*، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠، ٢٥٥ صفحة.

١١. ولسن، كولن: *الإنسان وقواه الخفيّة*، تر: سامي خشبة، دار الآداب، بيروت، ط١.

الدّوريّات:

١. بلخير، ذيب. *تجليات الفعل الكلامي عند جلال الدين القزويني*. مجلة مقاليد، الأغواط، الجزائر، ديسمبر ٢٠١٣، ع٥، ٥٣–٦٥.

٢. بلقاسم، دفة. *استراتيجية الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية*. مجلة المخبر، جامعة باتنة، الجزائر، ٢٠١٤، ع١٠، ٣٨٩–٥٢٤.

٣. جودي، حمدي منصور. *بين تداولية الأفعال الكلامية والحجاج مقاربة مفاهيمية*. حوليات المخبر، جامعة محمد خيضر بسكرة، ديسمبر٢٠١٣، ع١، ٩٧–١١١.

٤. عبيد، حاتم. *منزلة العواطف في نظرية الحجاج*. عالم الفكر، أكتوبر– ديسمبر ٢٠١١، ع٢، م٤٠، ٢٣٩–٢٦٩.